بحثاً عن محمدٍ التاريخي *

آرثر جِفري / ترجمة مالِك مسلْماني

سنة ١٩٠٦ ظهر في الألمانية عملٌ لم تُفتح العين على مثله يتناول حيـاة المسـيح ، بعنوان : "Von Reimarus zu Wrede," ، تأليف ألبرت شفايتزر ، العالم الشّاب ، الّذي لم يكن معروفاً حتّى ذلك الحين ، و قد قام مونتغومري بترجمته إلى الإنجليزية تحت عنـوان " **بحثاً عن يسوع التاريخي** " .

كان كتاب شفايتزر مسحاً شاملاً متألقاً لمختلف أنماط " سِيِر المسيح " ، الّتي أنتجتهـا شتّى مدارس الفكر الّلاهوتي في أوربا ، من مدارس الورع الأرثوذكسي ، البعيدة كلّ البعـد عن قواعد النّقد ، إلى تلك المسرفة في التّفسـير الآخـروي (eschatological) و حتّـى الأسطوري . كان شفايتزر يهدف من ذلك إلى إجراء مسحٍ لمختلف المحاولات التي أُجريـت من أجل تفسير حياة سيدنا ، و ـ بعبارة أخرى ـ إجراء بحثٍ إحصائي لوضعية العِلْم بصدد هذه المسألة ، و أن يقيم سنواتٍ من البحث النّقدي الصبور ، الّذي كُرس لهذه الإشكاليات .

في الآونة الأخيرة أُقترح بأن الوقت قد نضج لبحث مشابه بصدد حياة نبي الجزيـرة العربية ، و لهذا بوسعنا أن نستعرض تقييمياً العمل الّذي تحقق ، و جمع النتائج المؤكّدة التّي تم بلوغها ، و ملاحظة اتجاهات العِلْم النقديةِ الّتي تُظهر خطوط البحث الواجب تتبعها مستقبلاً . يمكن لنا أن ننتظر طويلاً بزوغ عالِمٍ إسلامي يتحلّى باستعدادٍ أصيل و مجدٍ نظير شفايتزر ، ليأخذ على عاتقه هذه المهمة ، بيد أن في مكننا إجراء محاولة رسم مختصرة لهـذه المعـالم الأساسية لمثل هذا الاستقصاء بكثير أو بقليل من النجاح .

المصادِر

إن اعتبارنا الأول هو المصادِر ، و من الطبيعي أن نتفحص أدب المسلمين ، إذْ إنّهم أول من يؤمل منهم ترجمة حياة نبيهم . هنا و لدى النّظرة الأولى فإن قلب الدارس قد يخفـق

---

* *The Muslim World*, vol. 16: 327-48,1926

ارتباكاً أمام العدد الكبير حقاً لِسِيَرِ المسلمين بصدد النبي ، حيث ثمة مئات منها بالعربيـة ، و الفارسية ، و التّركية ، و الأوردوية ، و المالاوية ، و حتى بالصينية و بدرجة أقـلّ بلغـاتٍ شرقيةٍ . على أي حالٍ ، يبين البحثُ الأشد اختصاراً أن مشكلة المصادِرِ هي بسيطة نسبياً ، إذْ لا تعدو أن تكون مئات المجلدات الموجودة سوى تكرارٍ و إضافاتٍ خُرافيـةٍ غيـرِ متصـلة بالموضوع و بتعديلات ربما لما يقارب ستة من النصوص العربية المهمة الرئيسة .

إن الأثر الأقدم الّذي بحوزتنا بصدد حياة محمدٍ كتبه محمد بن إسحاقَ ، الّـذي مـات سنة ٧٦٨ م ، بعد مئة و ثلاثين سنة من وفاة النبي . إن كتاب ابن إسحاقَ قد فُقد علـى كُـل حالٍ ، و كل ما نعرفه عنه هو مقتبس منه – و من حسن الحظ إن هذه الاقتباسـات قيمةٌ – في كُتبِ المؤلفين اللاّحقين ، لا سيما ابن هشام و الطّبري . و علاوة علـى أن عمـل ابـن إسحاق هو المحاولة الأقدم المعروفة بصدد السيرة ، فإن له أهمية أبعد من ذلك ، هذا بغـض النظر عن أن الكاتب كان بشكلٍ ما مفكراً حراً ، أو لأنّه لم يخضع لتأثير النّزعات المتأدلجـة المتأخّرة ، إذْ إن عمله يتضمن معلوماتٍ حول سجايا النبي الّتي لا ريب إنّها سـلبية . كمـا يستشهد دكتور مارغوليوث :

> إن شخصيةَ محمدٍ الّتي جاء وصفها في سيرة ابن هشام سلبيةٌ إلى حدٍ بعيـد . فهو لا يتورع عن وسيلة لكي ينال غايته ؛ و يصادق على انعدام ضمير أتباعه ، حينما تُمارس في مصلحته. و إذْ كان قد انتفع إلى الحد الأقصـى مـن مـروءة المكيين ، فإنّه نادراً ما قابلها بالمثل . كان ينظم الاغتيالات و المجازر على نطاقٍ واسعٍ . إن سيرته في المدينة هي أنه زعيم لصوصٍ ، الّـذي تتشـكل سياسـته الاقْتِصادِية من تأمين الغنائم و تقسيمها ، و في بعض الأحيان كانت تجري قِسمة الغنائم وفق اعتبارات لم تكن ترضي فكرة أنصاره حول العدالة . إنّه نفسه كـان خليعاً ، طليق العنان و يشجع نفس الهوى لدى أتباعه . و بغض النّظر عن الفعل الّذي كان يقوم به فإنّه كان على أهبة الاستعداد لتبريره بتفويض إلهي خاصٍ . و على أية حالٍ من المستحيل أن نجد أي مبدإٍ ، لم يكن مستعداً ليتنازل عنـه مـن أجل ضمان الغاية السياسية . و عند مفاصل مختلفة في حياته تخلّى عن وحدانية الإله و دعواه بلقب النّبوة . و هذه صورة بغيضة لمؤسسِ الـدين ، و لا يمكـن تبريرها بأنها صورة رسمتها ريشةُ عدوٍ ؛ و لهذا السبب كان اسم ابـن إسـحاق واقعاً في اعتبار متدنٍ لدى التقليديين الكلاسيكيين للقرن الثالث الهجري ، و إن لم يحاولوا تكذيبٍ هذه الأجزاء من السيرة الّتي تحتوي على التفاصيل الأشد وجعـاً حول شخصية نبيهم .

(*Encyclopedia of Religion and Ethics*, volume 8, p. 878.)

و يلمح مارغوليوث إلى جانبٍ في صالح هذه السيرة ، ذلك أنها نادراً ما تلجـأ إلـى الخارق ، و حتّى عندما تُقدم المعجِزةُ فإن ذلك لا يظهر أنّها تؤثر على السببية .

إذاً ، إن المصدر الأولّ المهم الّذي وصل إلينا بالحقيقة هو **كتاب المغازي للواقـدي** . مات الواقدي سنة ٨٢٢ م ، و لعل أفضل نص يمكن الرجوع إليه هو ترجمة أجزائه المهمـة في عمل فلهاوزن " **محمدٌ في المدينة** " (برلين ١٨٨٢) . و على أي حـالٍ يتسـم عمـل الواقدي بقصورٍ جدي ، ذلك إنّه يتعامل فقط مع حملات محمدٍ . و بعد ذلك بقليل تأتي **السيرة النّبوية لابن هشام** (تحرير فوستنفيلد ، غوتنغِن ١٨٥٩ ، و قد تُرجمت إلى لغة ألمانيةٍ مبهمة من قبل فايل [1]) ، و **كتاب الطّبقات الكبرى لابن سعد** (تحرير إدوارد زاشاو، بمساعدة عدد من الدارسين الآخرين ، في تسع مجلدات ، طُبعت ما بين ١٩٠٤ ـ ١٩٢١ في ليدن) . مات ابن هشام سنة ٩٣٣ م ، و ابن سعد ٨٤٤ م . و الأعمال اللاحقة بالعربية لها قيمـة ثانويـةٌ مقارنةً مع هذه الأعمال .

بكل الأحوال ليست هذه الأعمال مصادر أولية ، فهي نفسها مؤسسة على مصدرين : الأحاديثِ و القُرآن . و المجموعة الأهم من الأحاديث هي للبخاري (ت ٨٧٠ م) ، و مسلمٍ (ت ٨٧٤ م) . و لاحقاً سننظر إلى القيمة التي يمكن عزوها إلى الأحاديـث . و سـنعتبر القُرآن الّذي حرر تقريباً في الشكل الّذي لدينا خلال جيلٍ من وفاة محمدٍ مصدرنَا الأولَ لحياة محمدٍ . بالطبع ، سيكون جلياً إلى أي قارئٍ للقُرآن ، كم هي المواد المتعلّقة بالسيرة ضئيلةٌ . و كان نلدِكه أول من أشار إلى أهمية الشاهد في القُرآن فـي طبعـة (١٨٦٠) لعملـه " Geschichte des Qorans " ، و من الممكن أن يكون عمل كانون بيـل " **تطور القُـرآن التاريخي** " (مدراس ، ١٩٠٩) خلاصةً مدروسةً بصيغة سهلةٍ لعمل نلدِكه ، حيث اشـتغل بيل على مخطوطة مترجمة تمت لأجله في الهند .

بإمكاننا أن نجد خلاصةً موجزةً ممتازةً حول مسألة المصادر في مقالة زاشاو التـي كتبها كمقدمة لكتاب ابن سعد من طبعة ليدن ، أو الخلاصة الأقدم في مقدمة عمل السير ويليام موير " **حياة محمدٍ** "

[1] *Des Leban Mohammeds*, 2 vols., Stuttgart, 1864.

الروايات المسيحيةُ المبكرة

ظهرت الإشارة الأقدم إلى محمدٍ في الأدب المسيحي في " تاريخ سيبوس " ، المكتوب في القرن السابع الميلادي ، حيث انحصر قوله في أن محمداً إسماعيلي ، إدعى النبوة و علّم أبناء بلاده العودة إلى ديانة إبراهيم . إن القيمة الّتي لدى الكُتّاب البيزنطيين ضيئلة ، لكنه يتأتى الاعتراف بأن هذا المصدر لم يفحص إطلاقاً من قِبل دارسـي الإسـلام . فـ ـ " نيسـيتاس البيزنطي " ، يكتب : ["Refutatio Mohammadis" (Migne *P.G.* cv)] ، و يكتـب ارتولوميو من إديسا رسالةً بعنوان : ["Contra Mohammadem" (Migne *P.G.* civ)] ، اللّتان يمكن أخذهما كنماذج لأعمال نشأت نتيجةً عن التماس مع القـوة الإسـلامية فـي الحروب التي سلبت من الإمبراطورية البيزنطية مقاطعاتها الشّرقية الواسـعة الواحـدة تلـو الأخرى .

لقد حصل الكتّاب القروسطيون اللاتين على معلوماتهم مـن مصـدرين : الروايـات البيزنطية ؛ و من التواصل الشّخصي مع الإسلامِ خلال الحملات الصـليبية . إن استقصـاء تطور الخرافات الجافية التي انتشرت عبر أوربا خلال هذا العصر ستكون دراسـة ممتعـةً ، حيث بدا محمد واحداً من ثلاثة أوثان : **أبولّين** ، **تيرغافان** ، و **ماهون** ، الّتي كان يعتقد على نطاق شعبي بأنّها معبودات المسلمين . و قد عبرت الأساطير إلى إنجلترا ، و في لغة أسلافنا فإن اسم محمدٍ ، في صيغته المحرفة " mawmet " ، صـار كلمةً مألوفةً لـ " الصنم " . و هذا ما نقرأه في " أسطورة القديس أندرو " . و قد تكرر ذلك في " حياة القـديس جوليـان " المكتوبة حوالي ١٢٠٠ م . و على أي حال كان كتاب العصر الكنسيون ينظرون إلى محمـدٍ على أنه هرطوقي أكبر ، أريوس ثانٍ ، أسوأ من الأول . و قـد تقولبـت أسـطورته وفـق الأساطير الهرطوقية الكبرى ، لسيمون ماغوس و ديكون نيكولاس . و يشير رينان إلى السبب في مقاله في (*Atti della Academia dei Lincei*) ، لعام ١٨٨٩ ، حيث يكتـب : " فـي الكتابات الشعبية ، ثم افْتِراءات بغيضة تهدف إلى تقليد الشيطان الأكبر قلائد الخـزي الّـذي ترغب المسيحية بقمعه بأي ثمن " [٢]. و هناك على أي حال استثناءات بارزة ، لهـذا الجهـل الكلّي و سوء الحكم يمكن أن ترى في حالات رجال مثل " بتروس فينرابيليس " (ت ١١٥٧ م) ، و الّتي نُشرت شذرات من مناظراته من جانبٍ توما (" كتابـان ضـد المحمديـة " [٣]، لايبـتش ، ١٨٩٦ م) ، و كتــاب الراهــب الــدومينكاني ريكلــودس (ت ١٣٢٠ م) "

---

[2] "Dans les écrits populaires, il s'y joint d'atroces calomnies, destinées à couvrir d'ignominie l'auteur du grand mal que la chrétienté voulait a'tout prix supprimer"

[3] Zwei Bücher gegen den Muhammedanismus.

" Confutatio Alcorani " ، الّذي ترك أثراً شديداً على مارتن لوثر ، حيـث يظهـر فيـه المؤلفُ إطلاعاً دقيقاً غير عادي على المادة .

العهد قبل النقدي

بعد عصر النهضةِ نجد أن القضية عادت لتجذب الاهتمام . مثل أعمال رايله " **حياة و موت محمد** " (لندن ، ١٦٣٧) ، و بريدو " **حياةُ محمدٍ ، أو أين يكشف حقيقة الدجل** " [4] (أمستردام ، ١٦٩٨) ، و هي مبنية على المواد العربية التي صارت متاحةً فـي التّرجمـات اللّاتينية ؛ لكن رواية هوتينغِر حول تعاليم محمدٍ في " Historia Orientalis " (زويـخ ، ١٦٥١) ، و انتقادات ماراكسيو القاسية الّتي تتخلّل كتابه " **التفنيد** " (بادوا ، ١٦٩٨) تبـدأ التقاليد الّتي تعتمد على المصادر الأصلية نفسها . و أغلب هذه الأعمال معادية بشكل مرير و مسبقة الحكْمِ ، على الرغم من أن هوتينغِر سعى لتقديم حكْمٍ غير متحيزٍ . و بكل الأحوال لقد دخلنا المعالجة الجديدة للموضوع مع العالم الهولندي ريلاند . إذْ كان قد تطلّع في عمله " de Religione Mahommedica " (أوترشت ، ١٧٠٤) ، إلى التّنأي عن الموقف العـدائي من محمدٍ ، و كافح من أجل تقدير نزيه لأهميته التاريخية . على أي حال ، كان لعمله حـظ سيئ حيث حاكه كتـاب " Vie de Mahomed" (لنـدن ، ١٧٣٩) تـأليف هـ ـ . دي بولينفيلييه ، الّذي كان إطناباً طناناً في محمدٍ من أجل التقليل من شأن المسيحية . لقـد سـماه هورغرونيه " رواية ضد أكليروسية ، حيث إن المواد المستمدة من معرفة سطحية بالإسـلام مستقاة من مصادر ثانويةٍ " . و بوسعنا أن نميز أصداء بولينفيلييه في ترجمة غيبـون لحيـاة محمد في عمله " الأفول و السـقوط " (لندن ، ١٧٧٦) . لا ريب أن غاغنير قد كتب عمله " Vie de Mahomet " (أمستردام ، ١٧٤٨) من أجل مقاومة الانطباع الخـاطئ الّـذي أحدثه بولينفيلييه . ساعياً بعمله هذا إلى أخذ منتصف المسافة بين بولينفيلييه من جهة و بريدو من جهة أخرى . مهما يكن من أمر ، لم يكن ممكناً التّقدم أكثر طالما لم يـتم العمـل علـى المصادر العربية .

[4] Vie de Mahomet, ou l'on découvre amplement la verité de l'imposture.

بدايةُ النقْدِ

لدى مطْلع القرن التّاسع عشر بزغ الاهتمام بالدراسات الشرقية ، و هذا ما مكّن مـن الانطلاق في محاولة تناول المشكل بما يسـتحقه . بوسعنا القول إن العصر الجديد بـدأ مـع عمل غوستاف فايل ، المعنون : " Muhammad der Prophet, sein Leben und seine Lehre " (شتوتغارت ، ١٨٤٣) . و فيه أولّ تطبيق لمنهج حقيقي تاريخي – نقدي لمسألة حياة محمدٍ . ربما لم يبلغ فايل بعيداً جداً في تقصيه ، كون مصادره كانت لم تزل محـدودة ، لكنه وجد و طبق المنهج . و سنة ١٨٦٤ أحرز تقدماً أبعد في ترجمته لسيرة ابن هشام . أما عمل غوسا دي بِرسِيفال " Essai sur l'Histoire des Arabes " (٣ مجلدات ، بـاريس ، ١٨٤٧) ، فإنه كُتب كما يبدو مستقلاً تماماً عن فايل ، و يتابع وصف حياة و عمل محمد ، و تنبع قيمته الحقيقية من المواد الضخمة من المصادر العربية التي جمعت معاً . و عالم آخر في هذه الحقبة هو فوستِنفِلد ، الّذي لم يكن كتابه " Das Leben Muhammad's " (٣ مجلدات ، غوتينغِن ، ٨٥٧- ١٨٥٩) مساهمته الكبيرة ، بل طبعاته الممتـازة للنصـوص العربيـة المبكرة ، و دراساته الاستاذية ، مثل :

1 - " Genealogishe Tabellen der Arabischen Stümme und Familien" (Götṯingen, 1852-l853).
2 - "Chroniken der Stadt Mekka" (4 vols., Leipzig 1861), "Das Gebiet von Medina" (Götṯingen, 1873).
3 - "Die Geschichtsschreiber der Araber und Ihre Werke" (Götṯingen, 1882).

التي أضاءت كثيراً جداً التاريخ المبكر . و على أي حال فإن لأعمال شـبرنغِر ، نِلدِكـه ، و موير أهمية أكثر .

إن عمل شبرنغِر سيخضع للنظر في قسم آخر ، لكننا نحتاج لـذكر شـيء واحـد ، فعلاوةً على عمله المهم جداً " Leben Muhammads " ، فإنّه أيضاً – مثل فوستِنفِلد ، قدم مساهماتٍ مهمة في مجال دراسة خلفية حياة محمد ، و ذلك في دراستيه :

1 - " Die Post und Reiserouten des Orients " (Leipzig, 1864).
2 - " Die Alte Geographic Arabiens " (Bern, 1875).

كانت مساهمة نِلدِكه العظيمة هي مقاله " Geschichte des Qorans " (غوتيغِن ، ١٨٦٠) ، الّذي يخرج عن مجال مقالانا ، لكنّه كان المحاولة الأولى لتقييم المصادر الأكثـر أهمية من أجل إعادة بناء حياة محمدٍ . إن نِلدِكه النّاقد الأشد رهافةً ، و الأكثر حرصاً للغايـة بصدد هذه الفترة المبكرة ، و بالعموم هو حريص جداً في حكمه التاريخي . أمـا كتابـه : " Das Leben Mummads nach den Quellen populür dargestellt " (هـانوفر ، ١٨٦٣) . فهو العمل الأشد خفةً ، و الأكثر شعبية ، و الّذي صار الآن شبه منسي . و أمـا العمل التتويجي لهذا العصر الأول من النّقدية فهو كتاب " **حياةُ محمدٍ** " لموير ، الّذي ظهر في لندن بأربعة مجلدات ، بين سنوات ١٨٥٦- ١٨٦١ . لقد مكث السير ويليام موير في الإدارة المدنية في الهند لمدة طويلة ، و قبض على ناصية الأدب المحمدي بالعربية ، و الفارسية ، و الأوردوية ، كان يحوز على مكتبة شرقية عظيمة . كان عمله مؤسساً على الدراسة الدقيقـة لأفضل مادة متاحة في حينه . إن عمله غني و مكتوب بشكلٍ نيرٍ ، و من جهة أخرى متحرر على نحوٍ لافت من الرأي المسبق . في مقدمته أعطى عرضاً لمبادئ نقد المصادر ، التـي لا زالت تستحق القراءة ، هذا الموضوع الّذي طوره في مقاله حول " قيمة المصادر التاريخيـة المحمدية المبكرة " ، المطبوع في كتابه " مناظرة المسلم " (لندن ، ١٨٩٧) . لقد طبع عمل موير مراراً ، لكن الطّبعةَ الأخيرة الصادرةَ في مجلد واحد من قِبل ت. هـ . وير (إدنبره ، ١٩١٢) هي الأكثر ملائمةً .

مجموعة من الأعمال الأصغر ، و الأكثر شعبية مشيدة بشكل واسع على أعمال هـذه الفترة من بداية النّقدِ . و الأكثر شهرة منها هي :

١ ـ " **محمدٌ و سلطَته** " لـ " جونستون " ، (إدنبره ، ١٩٠١) ؛

٢ ـ " **حياة محمدٍ** " لـ " بيل " (مدراس ، ١٩١٣) ؛

٣ ـ " **محمدٌ ، حياتُه و تعاليمه** " لـ " فولاستون " ، (لندن ، ١٩٠٤) ؛

٤ ـ " Mohamet et le Coran " لـ " القديس إيلِر " ، (باريس ، ١٨٦٥) ؛

٥ ـ " L'Islam et son Fondateur: étude morale " لـ " شول " (بـاريس ، ١٨٧٤) ؛

٦ ـ "Vie de Mahomet " لـ " ديلابورت " ، (باريس ، ١٨٧٤) ؛

٧ ـ " La Vie et la Morale de Mahomet " ، لـ " ألبر فـوا " ، (بـاريس ١٩١٢،) ؛

٨ ـ " Muhammad und der Islam " ، لـ " راينِر " ، (لايبتيش ، ١٩٠٥) ؛

٩ ـ " Mohammed und die Seinen " ، لـ " ريكِندورف " (لايبتيش ، ١٩٠٧) ؛

١٠ ـ " Das Leben des Muhammad " ، لـ " كرل " ، (لايبتيش ، ١٨٨٤)

.

السير المرضِية [PATHOLOGICAL]

كان لا بد أن تعتري الدهشة الباحثين الأوربيين بسبب تلك الإفادات الموجـودة فـي المصادر حول النّوبات الغريبة الّتي كانت توافي محمداً ، سيما عِنْد الوحي .

إن الانطباع ... بأنّه كان عرضةً للصراع تجد تأكيدها اللاّفت فـي الملاحظـات المدونة لتجاربه أثناء الوحي ـ و لا يقلّ من أهميتها احتمال أن تكون الأعراض غالباً قد زيفت . العملية الّتي كانت تصحبها نوبة اللاوعي ، الّتـي تُرافـق (أو تُسبق) أحياناً بصلصلة الأجراس في الأذنين أو بتخيل أحدٍ حاضر ، بإحسـاس الرعب ، تلك التي تدفع المريض إلى التّعرق و إمالة الرأس ، و إطلاق الزبد من الفم ، و تجعل الوجه يحمر أو يبيض ؛ و إلى الشعور بالصداع .
(مارغوليوث ، **محمد** ، ص ٤٦) .

لم تُستَوعب هذه الحقائق كثيراً من قِبل كُتّاب الاستشراق ، بيد أن شبرنغِر ، الّذي كـان طبيباً عاماً ، أمسك بهذه الشواهد للصراع بوصفها حلا مفتاحياً لشـخصية محمدٍ . و قد قـام بعمله في كتابه الهندي الأول ، " **حياةُ محمد مِن المصادِر الأصلية** " (اللّه أباد ، ١٨٥١) ، الّذي هو مسودة هزيلة ، و تتوقف عند الهجرة من مكّةَ ، و لاحقاً في بحثه الضخم :
" Das Leben und die Lehre des Muhammads " (٣ مجلدات ، برلين ، ١٨٦١ ـ ١٨٦٥) ،
و أخيراً في :
" Mohammed und der Koran: eine Psychologische Studie " (هـامبورغ ، ١٨٨٩) .

إن عمل شبرنغِر في هذا الاتجاه ممتع أكثر منه مقنعاً ، و قد تعرض لنقد حادٍ . فـي مقاله في *"كالكوتا ريفيو"* لعام ١٨٦٨ وصف السير موير عمله بأنّه : " مؤطّر بحب المفارقة ، و الميل إلى الاستهلال بالنّظريات المشيدة على أرضيات هشة . و يلاحظ هيرشفِلد : " إنّـه

يخطئ بكل تأكيدٍ في أنّه يعزو نصيباً كبيراً في نشأة الإسلام إلى حالة [محمد] العصبية أكثر مما تستحقها . إن النوبة الهلوسية و الهستيرية عامل غير قوي بما فيه الكفاية لإنتاج بالعموم جيشَانٍ كالّذي سببه الإيمان الجديد " [5]. و يصفه هورغرونيه بأنّه " عرض مبالغ فيه ليقينيـة مؤسسة على دراساته الطّبية السابقة " [6] . مهما يكن من أمر فقد وجد أتباعاً ، و كان أبرزهم الدكتور فرانتس بول ، العالم السابق للساميات من كوبنهاغن ، الّذي طرح صيغةً معدلةً مـن هذه النّظرية في كتابه " Muhammed's Liv " (كوبنهاغن ، ١٩٠٣) . و يستوعب بـول لحد كبير الحقيقة التي لُحظت بأن ذوي الطّبائع الهستيرية يجدون صعوبةً غير عادية و غالباً عاجزاً كلياً في تمييز الصيغ الزائفة من الحقيقية . و تسيطر على هؤلاء الأشخاص الأفكـار القاهرة ، و يستحيل عليهم النّظر إلى الأشياء على ضوئها الحقيقي ، و هو يظن بأن ذلك هو السبيل الأكثر أمناً لتفسير التّضاربات الغريبة في حياة النبي . و من الممكن أن نجد عرضـاً لافتاً للرؤية الباثُولُوجِية في بحث " حول هلوسة محمد " ، في عمل صغير لـ " ويليام إيرلاند " ، بعنوان : " الجلْطَة في الدماغ : دراساتٌ في التّاريخ و عِلم النّفسِ " (نيويورك ، ١٨٨٦) .

كان العمل المؤيد للتّحليل النّفسي " جوانب الإسلام " (نيويورك ، ١٩١١) للـدكتور ماكدونالد ، من هارتفورد ، تطوراً إضافياً لوجهة النظر الهامة هذه ، حيث يخبرنا بأنّه يتطلّع إلى بحثٍ مستقبلي مثمرٍ لحياة النبي كي يكمل فرضية أنّها كانت حالةً باثُولُوجِيةً بشكلٍ أساسي ، و بأن " مآله إلى ذلك الفساد إشكالية مرةً أخرى لأولئك الّذين قاموا بدراسة كيف أن غَيبوبةَ الوسيط الأشد صدقاً يمكن أن تشرع بالخداع في أي وقت " (م ن . ص ٧٤) .

قبل أن نترك هذا القسم علينا أن نضيفَ كلمةً أُخرى حول عمل شـبرنغر " Leben Mohammeds" . لا يجب أن يؤدي الملَلُ من النّظرية بالدارس إلى تجاهل هـذا العمـل ، كونه الأكثر تحفيزاً من كل الأعمال المتعلقة بسيرة محمدٍ التي لدينا ، و هو منجم من المواد ، التي جمعت بصبرٍ شديد و رتبت بشكل متفوقٍ .

---

[5] "New Researches," p.20.

[6] Mohammadenism," p.42.

السِير السيا - اقْتِصادِية

نقطة بدءٍ مختلفة تماماً أوحت بها لباحثين آخرين الشروطُ السياسِـيةُ و الاِجتِماعيـةُ للجزيرة العربية زمن محمدٍ . كانت الشروط الاجتماسية للجزيرة العربية أيام ميعة صبا محمد سيئةً . فلم تكن الجزيرة العربية في أحسن أوقاتها خصبةً ، و في ذلك العصر بالتحديد كانـت جميع الأطراف الطّيبة واقعةً عملياً تحت سيطرة القوى الأجنبية ـ البيزنطيين ، الفارسيين ، و الأحباش ـ الّذين كانوا يدفعون القبائل العربية أبعد باتجاه صحاريهم . و لم يكن الاتصال مع حضارة هؤلاء النّاس الأكثر تطوراً بدون تأثيرٍ ، إذْ جعل العرب المعدِمين يرنـون بعيـونهم التواقة إلى الأشياء الأفضل الّتي بالكاد حلموا بها حتى الآن . فالقبائل نفسها كانت لا تهـدأ و ساخطة ، و الظروف الاقْتِصادِية كانت بائسة ، و كانوا جاهزين للتجمع تحت أي راية تعطيهم أملاً بالخلاص الوطني . لقد كان محمد هو من رفع الراية ، و عمل على جعلهم قوةً وطنيـةً قويةً ، التي ستضمن الجزيرة العربية للعرب .

لعل كتاب الدكتور مارغوليوث " **محمدٌ و نهوض الإسـلام** " (لنـدن ، ١٩٠٥) ، الدراسة الأكثر تألّقاً لحياة محمدٍ قد ظهرت و هي تعكس هذه النظرة ، و التي يمكن رؤيتهـا أيضاً في نفس مقالي الكاتب بصدد محمدٍ في الـ (Encyclopædia Britannica) (الطبعة ١١) ، و (Encyclopedia of Religion and Ethics) (المجلد الثامن) . و حسـب هذه النّظرة كان محمد محباً لوطنه ، واعياً بشكل رائع لفرص التّاريخ ، و الّذي أنشأ منهجية وحدة العرب في مواجهة الخطر العام ، و وظف فرص العصر الذهبية .

> إن الرجلَ الّذي بوسعه أن ينظم قوةً مسلحةً يقودها نحو النّصر يمكن أن يظهـر من خمول الذّكر إلى الأوتوقراطية في أي مكانٍ . و لعل كل قرنٍ إسلامي لديـه حكايةٌ حول شخصياتٍ مشابهة . لقد نهضت سلالات العباسـيين و الفـاطميين ، البويهيين ، السلجوقيين ، و العثمانيين بنفس الطريقة ؛ و في أغلبها كان اللجـوء إلى الدين يلعب دوراً مهماً . فنجاح المؤسِسين كان يعود بشكل واضـحٍ لا إلـى الحقيقة الموضوعية للعقائدِ الّتي كانوا مرتبطين بها ، بل إلى مهارتهم بوصـفهم منظمين و زعماء عسكريين ... كانت كفايته [أي محمد] فـي تقـدير صـفات الآخرين غير عاديةٍ : و من هنا فإن اختياره للتابعين بدا بعيداً عن الأخطاء . و في المقام الثّاني ، كان مطّلعاً بشكلٍ كاملٍ على نقاط ضـعف العـرب ، و قـد استعملها إلى أفضليتها القصوى . إن قصص نجاحاته كما يقدمها ابن إسـحاق ،

> تشير إلى غياب تام للشّك الأخلاقي ؛ لكنّها تظهر مزيجاً من الصبر و الشّجاعة و الحذر ؛ القدرة على القبض على الفرص ، و الارتياب بالإخلاص عندما لا يكون مدعوماً بالمصلحة ، و هذا يفسر لحدٍ كبيرٍ موثوقية تحقق النتائج .
> (*Encyclopedia of Religion and Ethics*, vol. 7, p. 873) .

يمكن القول إنّه كان في المدينة لصاً بالضبط مثلما كان داود ، ملك إسـرائيل ، فـي أيامه المبكرة . فعندما دخل مكةَ ، دخلها بوصفه زعيماً سياسياً أكثر من كونه نبيـاً ، و قـد اعترف المكّيون به بهذه الصفة . كانت الاعتبارات السياسية تملي تعاملاتـه مـع اليهـود و المسيحيين إلى حدٍ كبير : لقد تعامل مع القبائل الوثنية بصفته عاهلاً و مجمل موقفه بالنسـبة إلى الإمبراطوريات المحيطة كان بصفته رجل دولة . " إن الحقيقة الأساسية في فجر الإسلام هي أنه صار للحركةِ وزناً عندما كان مؤسسها قادراً على امتشاق السيف و الإمساك به بنجاح " . و لهذا عندما نسعى إلى تقدير أهمية محمدٍ ، لا يجب علينا أن نحاكمه كمصلح صوفي أو ديني على الرغم من أنّه يمكن أن يكون حائزاً على عناصر منهما بل بالأحرى كرجل دولـة واجه مشاكل سياسية محددة و ملحة بين أناسٍ غير متحضرين لحدٍ ما و في لحظةٍ حاسمةٍ من التّاريخ .

إن رؤيةً مشابهةً كان يحملها العالم الإيطالي ليون كايتاني مع أنه لسوء حظنا ليس بين أيدينا صورته الكاملة للنّبي . إلاّ أنّنا نملك على كل حالٍ الخطوط الأولية لمعالجته في المجلّد الأول و الثّاني من كتابه الضخم " Annali dell' Islam " (ميلان ، ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧) ، و في المجلّد الثّالثِ لمؤلفه " Studi di Storia Orientale " (مـيلان ، ١٩١٤) . يقتـرح كايتاني بأن الانفجار العظيم ، الّذي قذف بالجيوش العربية نحـو فـتح الأراضـي الخصـبة المحيطة ، هو فقط آخر سلاسل الانفجارات المشابهة للشعوب السامية ، التي كانـت تلفظهـا الجزيرة العربية في الأزمنة التاريخية ، بسبب من الضغط الاقتِصادِي النّاتج عـن الجفـاف التّدريجي في الجزيرة العربية . هكذا صار محمد قائداً لهذه الحركة ، وفق الأفكار الدينية في الجزيرة العربية آنذاك ، إضافةً إلى ذلك سِياسِياً و نفعياً .

> إن طبعه المندفع ، المقترن بكفاية سِياسية نادرةٍ لرجل دولـةٍ و مرشـد للقـوم ، جعلت من محمد نفعياً متفوقاً ، مفعماً بثقة شديدة بالذاتِ ، مكنته مـن أن يقـذف بنفسه بدون تبصر مع خِفة نحو المغامرة حيث ورط أولئك الّذين تبعوه ، و قـد أثملتهم و أغوتهم أخلاقية المعالم العليا .

٧. ("Annali." I.205)

و بدوره كان لدى الباحث د. س. هـ . بِكِر هذه النظرة ، الّذي كان أحياناً محرراً لـ (*Der Islam*) ، كتب في مؤلِفِهِ " **الإسلام و المسيحية** " (لندن ، ١٩٠٩ ، ص ٢٩) :

إن المسلمين المتعصبين لحروب الفتح ، الّذين كان صيتهم ذائعاً وسـط الأجيـال المتأخرة ، آمنوا و إن بقليلٌ من الاهتمام بالدين ، و أظهروا في بعض الأحيـان تجاهلاً للمعتقدات الأساسية الّتي بالكاد يسعنا المغالاة بها . و الحقيقة مؤلَفَةٌ كاملاً من الدوافع الّتي كانت تدفع الهجرات العربية . فهذه الدوافع كانت اقْتِصـادِيةً ، و الدين الجديد لم يكن أكثر من مطلب جماعة لتوحيد القوة ، بالرغم من أنه لـيس من سبب للافتراض بأن لا قوة أخلاق حقيقية فـي حيـاة محمـدٍ و معاصـريه المباشرين .

تطور مثير للاهتمام ضمن هذا الجزء هو نظرية البروفيسور أوبرت غريم . حيـث أصدر هذا المؤلفُ كتابين حول محمدٍ . أولهما " **محمد** " (ميونستر ، ١٨٩٢) ساعياً فيه إلى تفسير تطور الإسلام بوصفه ظاهرةً اشتراكيةً . فبعد أن درس و رفض نظرية شبرنغر بـأن الحنيفية مصدر الإسلامِ الأصلي ، أشار إلى أن الإسلام يمكـن أن يفسـر ببسـاطة بوصـفه اشتراكياً أكثر منه منظومة دينية .

إن الشروط الّتي اعتدنا على رؤية الحركات الاشتراكية تظهر فيها في التاريخ ، كانت في مكةَ إبان حياةِ محمد . إذْ كانـت شـروط المعارضـة داخـل الهيئـة الاِجتِماعية قد أينعت إلى النقطة الّتي صارت فيها القطيعة وشيكةً . حيث طبقـة غنية تملك كل القُوة بيديها ، تتسيد على طبقة كبيرة من المعوزين الّذين يعـانون من ضغط الربا العديم الرحمة . ضد الطّبقة الأولى اندفع القُرآن فـي اتهاماتـه المحقة بغزارة ، فيما يتعلّق بأموالهم ، و بصدد المطَففين الّذين يخسرون النّـاس أوزانهم و مكايِيلَهم . تبذيرهم الأحمق للثّروة من جهة ، و التّراكم المستمر بشكل حريص من جهة أخرى ، و أخيراً عدم رضاهم ، على الرغم من الوفْرةِ . و في

[7] Si fatto carattere impulsivo associato con esimie qualita politiche di uomo di stato e di pasiore di popoli rese Maometto uomo eminentemente opportunista, il quale animato da una cieca, immensa fiducia in se, si getto alla cieca nelle piu ardite imprese e si trascino appresso tutti i seguaci, inebbriati e sodotti dalla superiorita morale del Maestro.

الجانب الآخر ، كان الشاهد مؤلماً كيف أنه رفض تقديم الصدقات إلى المساكين ، و السائلين ، و كيف يحرم اليتامى من الميراث ، و العبيد يناضلون عبثاً للحرية و الانْعِتاق . و من أجل وضع نهاية لهذه الظروف المعادية ، تحت ظـل العدالـة التكافلية ، قام محمد ، الّذي كان قد اختبر بنفسه قسوة حرمان اليتامى الفقراء في أيام نشأته ـ مع أنّه صار لاحقاً من الطّبقة ذات الأملاك ـ بوضع تشريع صارم يوجب على كل فردٍ دفع مقدار معلوم لدعم المحرومِين . و بهذه الطريقـة فـإن المساواة ستتأسس سلمياً ، باختلاف كلي عن جميع المساعي الاشتراكية للأزمنـة القديمة ، التي تُجلي ميلاً قوياً للتحولات القسرية في العلاقات الاِجتِماعية .

بالكاد وجدت هذه الأطروحة الجريئة قبولاً ، و لدى ظهورها تعرضت لنقد لاذعٍ مـن قبل سنوك هورغرونيه [8]، الّذي لاحظ كِلاً من عدم صحة عمل غريم ، الّذي يظهر محدوديات علمه ؛ و كذلك عدم يقينية الأُسس الّتي بنى عليها نظريته .

للأسف فإن البروفيسور غريم ذو سمعة بالنّظريات الجامحة ، كما تشهد عليه مطابقته الجديدة لبعض علامات الأجواء على الأحجار ـ كما وصفها بيتري ـ في سيناء ، بوصـفها خطّ يدٍ لموسى بالذات ، وحتّى لو كانت نظريته تملك قاعدةً سليمةً ، فإن مـن المسـتبعد أن يكون الدافع الاشتراكي قادراً على تفسير كل الوقائع المأخوذة بعين الدرسِ .

النقد المتقدم

لقد واتتنا الفرصة آنفاً لملاحظة أنّه إلى جانب القُرآن و " سِير " ابن إسـحاق و ابـن هشام ، و آخرين غيرهما ، لدينا مصدر مهم آخر لحياة محمدٍ ألا و هو الأحاديث . ففي الواقع وجدنا أن " السِير " المبكّرة مؤسسةٌ بشكلٍ كبيرٍ على الحديث ، و في الفترة ما بين فايل إلـى موير تتابع الكتّاب الأوربيون على فرضية أنه لو تم تمحيص كمية معينة منها ، فإنّه يمكـن التوثّق من مجموعة معتبرة من الأحاديث الصحيحة لغايات السِيرة . و الدفْعة الأوليـة لهـذه الفرضية جاءت من إيغناتس غولدتسيهر في عملـه " Muhammedanische Studien " (هاله ، ١٨٨٩ ، ١٨٩٠) ـ . و حتّى بعد التّمحيص الدقيق نجد أن أقدم الأحاديث تعود بنـا القَهقَرى إلى القرن الأول الهجري ، و أغلب هذه الأحاديـث ضـعيفة ، و تلونـت بـالتحيز

---

[8] *Revue de l'Histoire des Religions*, volume 30, pp. 48 ff.

الثيوقراطي ، و هي مختلطة بالمادة الأسطورية ، و محرفة من أجل مصالح أُسرٍ محـددة و أحزاب سياسية .

لقد كان من المعتقد أن النقد الدقيق مازال ناجحاً في إيجاد بعض الأسس الأكيدة ، لكن تطوير عمل غولدتسيهر على يد كايتاني و هنري لامنس بدأ بإجبارنا علـى الوصـول إلـى النتيجة التّالية :

> حتّى المعطيات الّتي اعتبرناه عموماً موضوعيةً تقريباً ، تتكئ بشكلٍ رئيس على الرواية المتحيزة . إن الأجيال الّتي عملت على ترجمة حياة النبي كانت قصـيةً عن زمنه كي تملك المعطيات أو الأفكار الصادقة ؛ و علاوة على ذلك ، فإنّه لـم يكن نصب أعينهم هدف معرفة الماضي كما كان ، بل بناء صورة له كما يجـب أن يكون ، حسب آرائهم . لقد قام رواة الأحاديث برسم لوحات لآيات القُرآن التي تحتاج إلى شرح ، بحيث توافق رغباتهم أو مثُلُهم العليا ، و لجماعاتهم الخاصة ، أو حسب مجاز لامِنس المفضل ، يملئون المساحات الخالية من خلال سـيرورة القولبة التي تسمح للملاحظ النقدي بتبيان أصل كل صورة .
> (Hurgronje, "Muhammadanism," pp. 23, 24) .

كنا قد أشرنا سابقاً إلى عمل كايتاني . أما لامنس فإنه لم يقدم لنا بعد " سِيرةً نبويـةً " خاصة به ، و التي ستبدو فتحاً لدى ظهورها . لقد أرضى نفسه لحدٍ بعيدٍ بإصدار عـدد مـن الدراسات الأولية ، الّتي أطلق عليها " دراسات في السيرةِ " ، أسس منهجه ، محص مادته ، و إذا جاز التعبير ، مهد الأرض التّي يجب أن يبني عليها . يكتب : " إن منهجنا سيكون بحثـا أحاديا [monographic] أكثر من سِيري . إن الكل ـ لو شـاهدنا قط نهايته ـ سـوف يشكّل ترجمة جديدة لحياة محمدٍ " [9] . و لعلّ خير مقدمة إلى عمله هـو مقالـه " القُـرآن و الحديث : كيف أُلفت سيرة محمد " [10] (باريس ، ١٩١٠) ، حيث بـين أن الأحاديـث هـي مجرد توسعات بعضها فوق بعض لجملة عبارات و كلمات في القُرآن و لـيس لهـا مسـتند مستقل ، و بالطبع ، لا يمكن استعمالها كمصادر مستقلّة من أجل غايات السيرة . و في سـنة ١٩١١ ظهرت في **المجلة الأسيوية** دراسـة إضافية " عصر محـمدٍ و التسلسل التـاريخي

[9] Notre procédé,sera donc plus monographique que biographique. L'ensemble - si nous devons en voir la fin - formera une nouvelle Vie de Mahomet. ("*Le Berceau de l'Islam*," p. vi).

[10] Koran et Tradition: comment fut composée la vie de Mahomet.

للسـيرة " [11] ، و في السـنة التّاليـة الدراسـة المهمـة " Fatima et les Filles de Mahomet " (روما ، ١٩١٢) . حيث يعالج في هذا العمل أسطورة فاطمةَ في الكتابـات الإسلامية ، و يظهر فيه بالتفصيل كيف أنه تطورت هذه السيرة المفصلة لفاطمة جراء تفشي الصراعات ، و المحاسدة ، و التناحر بين مذاهب الإسلامِ الأولى ، الّتـي هـي خلـيط مـن العناصر المتنافرة التي أغلبها محرف و متضارب لحدٍ كبيرٍ . بيد أن هذا مجرد حجر تمهيـد للاستنتاج التّالي :

إن المنهج عينه ، و المبادئ المتماثلة تحكم التّفصيل الدنيوي للسيرة . فحول النّواة ، الّتي يوفرها تفسير القُرآن ، نُسجت النّظريات السياسية المتنـافرة ، متراكبـة بالأحلام الثيوقراطية ، و أفكار مدارس اللاّهوت و الفقه ، مع نزعـات الـدوائر الزهدية و مطامح الصوفية .

إذاً ، كما يلاحظ غولدتسيهر[12] : " بأن ما أثّر على المشاعر الدِينية لـيس الصـورة التاريخية . بل أُستبدل في مكانها الأسطورة التقية ، مع مثالها بصدد محمد . "

إن الدراسات الإضافية المهمة لـ لامنس هي : " هل كـان محمـد صـادقاً ؟ " [13] (باريس ، ١٩١٤) ؛ و " الجمهورية التّجارية لمكـةً حـاولي السـنة ٦٠٠ مـيلادي " [14] (الإسكندرية ، ١٩١٠) ؛ " الحكْم الثّلاثي لأبي بكْرٍ ، و عمر و أبي عبيـدةَ " [15] (بيـروت ، ١٩٠٩) ؛ " الخليفة يزيد الأول " [16] (بيروت ، ١٩٢١) ؛ و " مدينـة الطّائف العربيـّة " [17] (بيـروت ، ١٩٢٢) . على الدارس أن يراجـع مقال دكتور بِكِر بصـدد " Prinzip-ielles zu Lammens' Sirastudien " في (*Der Islam*) المجلد الرابـع ، ص ٢٦٣ ـ ٦٩ .

---

[11] L' Age de Mahomet et la Chronologie de la Sira.
[12] "Vorlesungen." p. 20.
[13] Mahomet fut il sincere?
[14] La République merchandise de la Mecque envers l'an 600 de notre ére.
[15] Le Triumvirat Abou Bakr, Omar et Abou Obaida.
[16] Le Califat de Yezid I.
[17] La cité arabe de Taif.

إن السمة الغالبة في النّقدِ المتقدم هي " العودة للقُرآن " . كون الأساس من أجل سيرة نقدية في الأحاديث عديم القيمة عملياً [18]؛ ففي القُرآن فحسب بوسعنا القول إنّنا نحـوز علـى أرضية صلبة تحت أقدامنا . كما وضعها سنوك هورغرونيه ، الّذي خطا بالنّقدِ المتقدم هذا [19]:

> بينما يمكن أن تكون آخر الأحكام هنا و هناك الّتي فحصت الأحاديث الإسـلامية بكثيرٍ من الشّك و الارتياب صحيحةً ؛ فإنّه بغض النّظر عن ذلك يبقى مؤكداً على ضوء بحثهم ، إن منهج الفحص لا يمكن أن يبقى بدون تغيير . و يتـأتى علينـا السعي إلى جعل شروحنا للقُرآن مستقلةً عن الأحاديث ، و إذْ كان ذلك مسـتحيلاً فيما يتعلّق بأجزاءٍ ، فإنّه يتوجب علينا الشّك في الشّروح ، مهما كانت مقبولةً .

إذا ما كان القُرآن مصدرنا الرئيس ، فإن الإشكالية التّالية هي التحقق كم ثابتـة هـي الأرضية الّتي يوفرها . لقد كان من المعتقد بأنّنا هنا في مأمن على الأقل ، بيد أن الأعمـال المتأخرة مثل أعمال كازانوفا و مينانا ، جعلت معتمدية هذا المصدر محل شكٍ ، لكـن هـذه مسألة كبيرة للغاية من أجل تناولها في الوقت الراهن .

المِيثُولُوجِي

لقد لاحظنا كيف أنه تم استبدال صورة محمدٍ التاريخية بالصورة المثالية و الأسطورية . و بالإمكان رؤية عينات من هذه الصور المبالغة في محمدٍ في " **حياة القلـوب** " (ترجمـة مِرريك ، بوستن ، ١٨٥٠) ، و في " بردة الشيخ البوصِيري " [20]، (ترجمة ، باست ، مـع التعليق ، باريس ، ١٨٩٤) . و من المثير ملاحظة أن التأثير المسيحي كان في أساس هـذا التّطور الأسطوري [21]، و كان من الطبيعي أن يسعى الدارسون لاقتفاء أثر سيرورة تطور هذه الصورة ، و هي التي تعرفها غالبية العظمى من المسلمين اليوم . يعطي كويـل فـي القسـم الثّاني من مؤلِفه ، " **محمدٌ و المحمدية** " (لندن ، ١٨٨٩) ، رواية مبسطة للخطوط الأساسية

---

[18] Hurgronje, op cit, pp. 25, 26; Goldziher in "Kultur der Gegenwart" I. iiii, p. 100 seq; and ZDMG. 1907; Caetani, I, 197, Lammens, "Berceau, 17 p. vi; "Fatima", 97 p. 139; Nldeke, ZDMG, vol. lii, WZKM, xxi, p.298

[19] "Mohammedanism," p.24.

[20] الإمام شرف الدين أبي عبد اللّه محمد البوصِيري (١٢١٣ م ـ ١٢٩١ م) : محدث و خطاط مصري . [م .]

[21] Becker "Christianity and Islam," p. 62.

في تطور الأسطورة ، لكن من أجل دراسة نقدية لهذه الإشكالية على الدارس أن يبدأ بمقـال ميتز :

" Die Geschichte der Wunder Muhammeds " فـي *Verhandlungen* لمؤتمر الثاني حول تاريخ الدين (بازل ، ١٩٠٥) ،

و مقال هوروفيتس :

" Zur Muhammadlegende " في (*Der Islam*) المجلد الرابع .

و على أي حال فإن العمل العظيم فيما يتعلق بهذا الجانب للموضوع ، هو لـ " تور أندراي " :

" Die Person Muhammads in Lehre und Glauben Seiner Gemeinde " (ستوكهولم ، ١٩١٨) .

إن خطوطاً أولية للمنهج مقدمة في مقاله :

" Die Legenden von der Berufung Muhammads " ، في (العالم الشّرقي ، المجلّد السادس) ، لكنّه أَنجز في كتابٍ أوسع تفصيلاً تطور و تشعب النبي ـ الأسطورة ، و أظهر تناظراته بمفاهيم الرجل الإلهي للمعتقد الديني الزارادشتي و الهيليني .

السير الآخروية

لقد أُشير مرراً بأن للصيغ الآخروية في القُرآن نصيباً مهيمناً . فـلا يمكـن قـراءة صفحات عدة دون مصادفة بعض الإشارات إلى نعيم المؤمنين المقبل في الجنّـة أو عـذاب الكافرين في الجحيم ، أو وعيد اللّه بحساب عسير للكافرين . و الأمر قد يبدو وسواساً لمحمد . و يشير الدكتور ماكدونالد :

> إن المفهوم الّذي كان ينتاب محمداً ، بأن ثمة يوم قيامةٍ قادمـاً حيـث سيحاسـب الجميع ، و أن الله هو الحاكم و الديان في يوم الحسابٍ هذا . و أن قلـيلاً مـن سينجو .
>
> آنذاك كان شعور الكارثة غامراً لدى محمدٍ . إن العالم الخفي ، الشيء المهـول الّذي يثوي خلف هذا العالم الّذي نراقبه ، الّذي يسببه و يعمل من خلاله ، كـان

قريباً بشكلٍ مرعبٍ . و عند كل منعطفٍ كان يشعر بما صِيغ بشكلٍ جيدٍ " إحساساً بالغضب القادم " .
. (*Aspects*, pp. 70, 62)

وقد رأى بعض الكتّاب المعاصرين ، مثلاً ، كازانوفا و هوروفيتس ، أن ذلـك هـو مفتاح إشكالية شخصية محمدٍ . و إن لم يتم فعلياً كتابة سيرةٍ محمدٍ على أساس هذه النظـرة ، بيد أنّها طُبقت للهجوم على إشكالات فردية كثيرة ، و بالأخص تلك التي تنهض في محاولات التفسير القُرآني . و قد تعزز الموقـف بدراسـة كازانوفـا " Mohammed et la Fin du Monde " (باريس ، ١٩١١ ـ ١٩٢١) . حيث يدعي أن سر رسالة محمـدٍ ثـاوي فـي الحقيقة أن مذهبه الأساسي كان بأن " الأوقات الّتي أعلن دانيال و يسوع عنها قد أزِفت : لقـد كان محمد آخر نبي اختاره اللّه لكي يرأس سويةً مع المسيح الّذي سيعود إلـى الأرض لهـذه الغاية لدى نهاية العالم و الحساب الأخير (م ن ، ص ٨) . لقد كان يؤمن بثبات و يعلّم بأن مجيئه ، و نهاية العالم مرتبطان سببياً وأنه يجب أن يشهد الدمار النّهائي قَبل موته . و عندما كان شبح الموت يطوف به ، و حينما كان يشعر بأن سنيه تمضي ، كان يستبد به هم شديد ، و من المعروف كذلك أن أَدنَى أتباعه آصرةً رفض في البدء تصديق نبـأ موتـه . و يعتقـد كازانوفا أن بعض الظواهر الغريبة في القُرآن يمكن شرحها بالحقيقة أنّه كان يتوجب إعـادة تحرير الوحي بما ينسجم مع واقعة موته ، و أن أشياء كثيرة في التّطور الإسـلامي المبكّـر لاهوتياً و من نواحٍ أخرى تعود إلى عين هذه النّقطة .

السير التّبريريةُ

كنا قد أشرنا بأنّه في وقتٍ مبكّرٍ جداً من تجدد الاهتمام بالدراسات الشّـرقية ، كتـب بولينفييه رواية أجمل فيها ذكر محمدٍ ، و التي استعملها غيبون لاحقاً . لم يكن عمله مرتكـزاً على أي دراسة دقيقة للمصادر الأولى ، و هذا ينطبق على عملَين تقريظِيين شـ ـهيرين ، و نخص بالذّكر منهما عمل كارليل ، في دراسـته " البطلُ نبياً " ، في " الأبطال و عبادة البطل " ، و عمل بوسورث سميث ، " محمد و المحمدية " (لندن ، ١٨٧٣ ، الطبعة الثّالثة ، منقّحة و مزيدة ، ١٨٨٩) . لقد طُبع مقال كارليل مجدداً ، و نشرته المدارس الإسلامية في الهنـد

على نطاق واسع ، بوصفه يمثل أفضل رؤية إنجليزية حول محمدٍ ، لكنّهم تغاضوا عن ذكـر أن كارليل استرد بالأخص كل كلماته الجميلة في المقال من " البطل شاعراً " .[٢٢]

لقد كان من المتوقع أن يكون أئمة المدرسة الحديثة في الإسلام ذوي التّعليم الإنجليزي ، مجتهدين من أجل تقديم هذه المنافحات . لقد كتب كِلا الرئيسين من مدرسة أليغاره في الهند سيرةً تبريريةً مستمدةً من وجهة نظر محددة . حيث نجدها لدى سيد أحمد خان في " مقـالات بصدد حياة محمدٍ و مواضيع إضافية أيضاً " (أليغاره ، ١٨٧٠) ، و سيد أمير علي في عمله " حياة و تعاليم محمدٍ " ، و الّذي صدر لأول مرة سنة ١٨٧٣ ، و لاحقاً كجزء أول في مؤلِفِهِ " روح الإسلام " (الطبعة الأخيرة ، لندن ، ١٩٢٣) . إن حكْم مـارغوليوث بصـدد هـذه المدرسة وجه بنباهة خاصة نحو عمل أمير علي :

> يسعى هؤلاء المدافعون إلى رفض سيرة ابن إسحاق حيثما تصدم القراء الأوربيين ، و حينما لا يكون ذلك سهلاً ؛ فإنّهم يقترحون دوافع نبيلـة ، أو يفترضـون أن المسار الّذي اتبعه النبي كان من أجل أن يصبح أقل بغضاً لأولئك الّذين ينفتحون نحوه أحياناً . و على هذا النحو يعلن بأن تسامحه في مسألة تعدد الزوجات كونه تقييداً مقروناً بالكبت الأقصى ، و اعتبر موقفه من العبودية تمهيداً يقود بالمثل إلى تحريرهم . بل إنه سـعى إلى ضرب مثلٍ على الـزواج الأحـادي ، و مـع أن النتيجة لم تكن مقنعةً ، إلاّ أن البراعة التي تطلبت من أجل ذلك كانـت عظيمـة للغاية .
>
> (*Encyclopedia of Religion and Ethics*, volume 8, p. 878).

و بالإمكان إيجاد مثال على محاولة صادرة من مدرسة مختلفة فـي عمـل م. هـ . كيداوي " **معجزة محمدٍ ، مسبوقة بخطوط عامة لسيرة محمدٍ** "(لنـدن ، ١٩٠٦) ؛ لكـن الأكثر تشويقاً هو العمل الأخير لمجموعة حداثية أُخرى ، في المجلّد الفاخر الصادر عن نادي

---

[22] بمبادرة من المفكّر الراحل " هادي العلوي " تمت ترجمة كراس « **البطلُ نبياً** » سنة ١٩٩٦ على يد " سيناء محمـد الطّائي " الّتي كانت خريجة الأدب الإنجليزي لتوها ، حيث صدرت عن " دار الكنوز الأدبية " . و قد أراد " العلـوي " ـ حسب تقديمه للتّرجمة ـ تقديم مثالٍ للقارئ العربي « للمقارنة مع سلمان رشدي و نظامه الإمبريالي و هـو مثـال يكرس الفرقَ بين مجتمع الرأسمالية الحرة القائمة على المنافسة ، حيث كتب كارليل ، و مجتمع الرأسمالية الاحتكاريـة الّتي تحولت مع زوال الغريم الاشتراكي إلى رأسماليةٍ متوحشةٍ حيث يكتب سلمان رشدي » . و الجدير ذكره أن كارليل يعتبر القُرآن ضعيفاً و يحكم عليه بأنه الكتاب الأكثر إثارة للضجر في العالم . [م.]

باريس للكتاب مخصوص لألف مجموعة ، ١٢٥ من الرق الياباني الإمبراطوري بسعر ١٨ جنيهاً للنسخة ، و ٨٧٥ من ورق يدوي بسعر ٨ جنيهات للنسخة . وهذا هو كتاب رباعي ضخم بخمس و ثلاثين صورة ملونة و تزيينات زخرفية عديدة ، و معنون " **حياةُ محمدٍ – نبي اللّهِ** " (باريس ، ١٩٢٠) . و هو عمل مشترك للفنان الفرنسي إ. دينه و سليمان بن إبراهيم ، و يقصد به مناهضة ترجمات حياة محمدٍ الافترائية و القدحية التي ظهرت في الأقطار الأوربية خلال مجرى القرون . " و قد أصدر المؤلفان نفساهما كراسةً بعنوان " L'Orient vu de l'Occident " (باريس ، ١٩٢١) ، يطلقان العنان فيه لنقدٍ قوي يبدا أنه مسالمٍ لأعمال لامنس ، كازانوفا ، هورغرونيه ، و باحثين آخرين من مدرسة النقدِ المتقدمِ .

الصوفيةُ

لدينا محاولة أكثر تأخراً تهدف إلى إعداد مبرإ جديدٍ لتفسير حياة محمدٍ هي للبروفيسور ج. سي. أرشر في دراسته العلمية المطبوعة في سلسلة ييل الشرقية ، و المعنونة " **العناصر الصوفية لدن محمدٍ** " (هافِن الجديدة ، ١٩٢٤) . لقد شرع الكاتب بنقدٍ قوي للنّظريةِ الباثُولُوجيةِ ، و بينا أقر بأنّه يمكن أن يكون هناك عناصر باثُولُوجية في حياته ، فإنّه شدد على أن الأمر الجوهري في تجربته هو أنّه كان صوفياً ، و لهذا فإن كتابه كان للبرهنة على أن " محمداً الصوفي هو شخصية أعظم مما كنا نحلم . " و زعم أن " محمداً كان صوفياً بالمعنى التّقني ، و أن ذلك ، ليس في الموقف العقلي فحسب ، بل في الممارسة العملية " . لكن حينما ننظر إلى عرضه المذهل ، فإن كل ما نجده هو تأويل مصفى لنصوص قُرآنية قليلةٍ ، و أغلبها لسوء الحظ محل شكٍ ، و النّظرية القائمةُ على أساس غير وطيدٍ القائلة بتأثير الزهاد المسيحيين في حياة محمدٍ المبكّرة . و النّظرية مبنية تقريباً بالكامل على القُرآن ، و قد اضطر البحث الحديث إلى أن يوضح بالتأكيد أنّه بالكاد يمكن الارتكاز على القُرآن من أجل محاولات التّفسير النّفسي . علاوة على ذلك و كما أشار ماسينيون: " يمكننا أن نؤكد بأن بعض الآيات الّتي لديها دلالة صوفية بالنسبة لقراء محددين ، لا يمكن أن تكون سوى اقتباس مبتذل بالنسبة لمحمد " [٢٣]. (*R.M.M.*, lix. 337)

إن محاضرات ريتشارد بِل أمام جامعة إدنبره ، " **أصلُ الإسلامِ في بيئته المسيحية** " (لندن ، ١٩٢٦) هي آخر مسعى من أجل تزويدنا بوجهة نظر لتأويل حياة محمدٍ و تعاليمه .

[23] on peut affirmer que plusieurs des versets qui ont une portée mystique pour certains lecteurs, ont pu n'avoir pour Muhammad que l'academisme d'une citation.

إن عمل ـِل هو مجرد دراسة تمهيدية ؛ إذْ يعتمد كلياً على القُرآن ، و لا يأخذ بعين الاعتبـار الرواية التقليدية أو السيرة ، و يرى أنّه بوسعنا من القُرآن نفسه إيجاد المبادئ الرئيسة الّتـي ستقودنا لاحقاً عبر متاهة الأحاديث . و يعتقد ـِل بأن الإشكالية تكمن في أنّه عشـية مجـيء محمدٍ ، أصبحت الأفكار الدينية الجديدة تتخلّل الجزيرة العربية ، لحدٍ ما من جانب اليهـود و بالأعم من قِبل المصادر المسيحية ، التي أتت الجزيرة العربية من ثلاثة اتجاهات : نزولاً من سوريا إلى شمال غرب ، من الرافدين إلى شمال شرق و من الأعلى من الأحباش عبر جنوب الجزيرة العربية . وأحد براهين ذلك أن معظم المعجم الديني مستعار إما مـن الأثيوبيـة أو السريانية ، و حتّى المصطلحات اليهودية ، و المصطلحات الدينية الفارسية الّتي جاءت مـن خلال السريانية . و على هذا النحو فإن : **اللّه** ، **القُرآن** ، **الفُرقان** ، **صلوات** ، **جهنّم** ، **جنّة** ، **فِردوس** ، **زكاة** ، **دين** ، الخ ، كلّ تلك الكلمات من هذا المنشإ ، و الشّخصيات البارزة الّتـي تتحرك على مسرح القُرآن : **إبراهيم** ، **يونس** ، **موسى** ، **عيسى** ، **إدريس** كلها من مصـدرٍ سرياني .

لقد كان محمد على اتصال مع عالم الأفكار الدينية الجديد ، بقدر ما تعربت قَبل زمانه ، لكنّه اتصل لاحقاً بالمصادر اليهودية و المسيحية نفسها ، و يدعي ـِل أن بإمكاننا رؤيته كيف كان يكتسب تدريجياً المعلومات أكثر فأكثر حول هذين الدينَين ، و بالأخص حول المسيحية ، و يطّور تعاليمه جنباً إلى جنب مع تزايد المعرفة . و على هذا النحـو يمكننـا أن نجـد أن المفردات الدينية للسور الأولى محددة بما يمكن أن يكون مستمداً مـن الشّـعر المبكّـر ، و الكلمات ، التي تطبعت في العربية قبل مجيئه . و نجد في هذه الحقبة القليل عن الأنبيـاء أو طقوس الأديان العظمى . بعد ذلك صار يتعلّم و يسـتعمل المصـطلحات الدينيـة الجديـدة المقتَرضة من المصادر المسيحية و اليهودية ، و شرع يتحدث عن الأنبياء . و من الجلي أنّه لم يكن يعلم في ذلك الوقت بأن اليهود و المسيحيين ليسوا على رؤية واحـدة . و فيمـا بعـد اكتشف ذلك و تغيرت لغته بسرعة . و بالتالي لن يفسره ـِل صـوفياً و لا مصـاباً بالسـكْتَة الدماغِية ، و لا حالةً باثُولُوجِية من أي نوع . نعم سياسي ، لكن من طبيعة دينية ، الّذي كان يشُق على نفسه غياب الدين لدى شعبه ، و أعتقد أن مهمته هي إعطاء العرب نظير الرسـالة التي أعطاها الأنبياء للشعوب العظمية المحيطة .

بالتأكيد يوفر لنا هذا نقطةَ بدءٍ واعدةً ، أفضل من أي واحدة أُقترحت حتّى الآن كـي تنطبق على الحقائق البادية من القُرآن ، و يمكن أن يوفر لنا التطبيق الموحى من جانب ـِـل مفتاحاً للعودة إلى بحثنا عن محمدٍ التاريخي ، على الأقل طالما بوسعنا أن نتوقع ذلك .

إن النتيجة الّتي تتبدى لنا من استعراضنا القصير هي أنّه ما زال علينا الانتظار بعـد من أجل القيام ببحث إضافي في المصادر الأولى ، و إجراء نقاش أبعد و ذلك للسماح ببلورة رأي بحيث يتم وضع أُسس سليمة ، قبل أن ينجز شيء كثير فيما يخص بناء السيرة . و مـن الجدير بالملاحظة ، إن الباحثين الأكثر إطلاعاً على المصادر العربية قد اقتربوا أكثر من فهم حياة تلك المرحلة ، باحثون أمثال مارغوليوث ، هورغرونيه ، لامـنس ، كايتـاني ، و هـم الأكثر حسماً تجاه دعاوي محمد النّبوية ، و يتوجب الاعتراف بأنّه كلّما سار المرء أبعد فـي دراسته الخاصة للمصادر ، كلّما صار صعباً عليه تفادي استنتاجات هؤلاء الباحثين .